الفارس الجميل

بقلم : علي أحمد باكثير

•• وارتحل مصعب بزوجته الى الكوفة ثم لحق به الأحنف بعد ذلك . وكان في نية مصعب ان يعجل بالسفر الى مكة للقاء أخيه وعرض الأمور عليه ، لولا ان واجهته أول ما قدم الكوفة ، مشكلة أصحاب المختار . فانهم لما سمعوا بمقتل صاحبهم ضاق بهم الأمر ولم يجدوا لهم ملاذا الا ان يتوافدوا الى الكوفة ليستسلموا لمصعب وينضموا اليه على أن يقاتلوا معه عبد الملك ابن مروان .

قالوا لمصعب : لا تقتلنا واجعلنا في مقدمة جيشك لقتال عبد الملك فان ظفرنا فلكم وان قتلنا لا تقتل حتى تقتل منهم طائفة وكان الذي تريد .

فرق لهم وكاد يجيبهم الى ما طلبوا لولا ان جماعة من كبار أصحابه بزعامة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أبوا ذلك وقالوا : هؤلاء قد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منا خلقا لا حصر لهم أو احترهم . فحار مصعب ماذا يفعل . واشار عليه الأحنف بن قيس الا يصغى الى هؤلاء ، وان يقبل التائبين من أصحاب المختار فانهم يكرهون آل مروان ويحرقون لقتالهم وسيكونون قوة له .

قال مصعب : لكن أصحابي سيستحلون دمي اذا قتلت .

واشتد الحاح أصحابه عليه في وجوب قتل أصحاب المختار حتى ضاق بهم صدره فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم .

وخشي هؤلاء ان يرجع مصعب في قوله فانطلقوا الى الحسال فذبحوا من اصحاب المختار ثلاثة آلاف رجل في يوم واحد . وكانت مذبحة اشتهر لها مصعب لما بلغه . واحد بلوم اصحابه ويصنعهم ولكن بعد فوات الأوان .

وطفق الأحنف يلومه ويقول له : انك بما فعلت قد افسدت اصحابك هؤلاء عليك ، وشجعتهم على مخالفتك ، والاستقلال برأيهم دونك . ان هؤلاء اهل العراق لا يصلحون الا بالشدة والحزم ويفسدهم اللين والمراخاة .

فاسترجع مصعب وقال : دعني من لومك الآن يا أبا بحر . فقد فعل المقدور ولا سبيل الى رد ما وقع .

ولم يكد مصعب يفيق من هول هذه الحادثة حتى واجهته مشكلة أخرى ، حينما جيء اليه بزوجتي المختار بن ابي عبيد « أم ثابت بنت سمرة بن جندب ، وعمرة بنت النعمان بن بشير » فقيل له يجب أن تستبيحهما فان ثابتا واعلنتا البراءة منه اطلقتهما والا قضيت عليهما بالقتل .

فسأل مصعب الأولى عن رأيها في المختار فقالت : ماذا تقول فيه انت ايها الأمير ؟ .

ـ أقول انه كافر ملحد .

ـ قالت : فاني اقول فيه بقولك انت .

فاطلق سراحها .

ثم سأل الثانية عنه فقالت : رحمه الله . لقد كان عبدا لله صالحا .

ـ ويلك أما تعلمين انه كافر ؟ .

ـ أصلحك الله ايها الأمير والله لو علمت انه كافر ما اقمت عنده يوما واحدا .

ـ يا هذه ألا قلت كما قالت ضرتك فيه فاطلق سراحك ؟ .

ـ ايها الأمير لعلها قالت لك ذلك فيه طمعا منها ان تتزوجها انت ؟ .

ـ فضحك مصعب وقال لها مداعبا :

ـ وأنت أليس لك في ذلك ؟ .

ـ لا والله لا اتزوج قاتل زوجي أبدا .

فحار مصعب في أمرها . وأراد ان يكتب الى أخيه عبد الله ليستفتيه فيه ولكن اصحابه ثاروا عليه وقالوا له : يجب قتلها اسوة باصحاب المختار الآخرين .

قال لهم : انها امرأة وفية لزوجها . ولا ينبغي لهـا ان تقول فيه غير ما قالت .

قالوا له : لعلك أعجبك جمالها فأردت ان تستبقيها فانك ـ ما علمنا ـ رئر نساء .

فنهرهم غاضبا وقال لهم : قبحكم الله من قوم سوء .. ويلكم أترون جديرا بي ان اقتل النساء ؟ . اغربوا عن وجهي .

فانفضوا من عنده وهم يقولون : والله لنكتبن الى اخيك امير المؤمنين في شأنها .

فسأل مصعب عمرة عن أهلها فقالت

له : انهم بالحيرة فامر بان تحمل الى اهلها هناك ريثما يأتيه جواب اخيه عبد الله في أمرها فيتعهده .

ولكن الشرطة الذين انتدبهم لمرافقتها قتلوها في الطريق بين الكوفة والحيرة . فلما بلغ مصعبا ذلك ثار وغضب وتوعد القتلة بالعقاب ، لولا أن جاء جواب من عبد الله بن الزبير يأمره بقتلها اذا أصرت على رفضها أن تتبرأ من زوجها الكافر ، فما كان من مصعب الا أن سكت عنهم .

بيد أن الأثر الذي تركته هذه الحادثة في مصعب كان عميقا جدا فلم يستطع أن يطرد من ذهنه خيال عمرة وهي مضرجة بدمائها في الأرض القفر ولا من سمعه صدى أبيات ابن ابي ربيعة التي سارت بها الركبان وانتشرت في كل مكان .

ان من اكبر الكبائر عندي
قتل حسناء حرة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب
ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

* * *

وساق مصعب بمقامه في الكوفة واراد أن يرتحل الى اخيه لعله يجد في الرحلة مرجا من الكرب الذي هو فيه . ولكنه ينتظر قدوم ابراهيم بن الاشتر الذي كتب اليه بانه قادم ، ولم تطوع له نفسه مغادرة الكوفة قبل ان يقدم ابراهيم فيعهد اليه بمزاولة شئون الحكم في أيام غيبته بالحجاز ، اذ كان لا يثق باحد ثقته بابراهيم . وكان مصعب مصحبا بابراهيم بن الاشتر منذ كان ابن الأشتر خصما له يقاتله مع عبدوه المختار بن ابي عبيد كما كان ابن الأشتر مصحبا بمصعب كذلك ، يكبر أحدهما الآخر لشهامته وفروسيته .

وكان ابن الأشتر متحمسا للمختار لما أظهره من التشيع لآل البيت والمطالبة بدمائهم واعادة الحقوق اليهم ودعوته في ذلك الى محمد بن الحنفية . وظل كذلك الى أن تبين له كذب المختار فيما ادعى من كتاب محمد بن الحنفية اليه ، ذلك الكتاب الذي زوره المختار عليه فتبرأ منه حينئذ وتخلى عنه .

وكانت الحرب سجالا بين المختار ومصعب فما راع مصعبا ذات يوم الا ابن الاشتر يقبل عليه وحده والسيف مشهور في يده فحاول رجال مصعب ان يمنعوه فقال لهم مصعب دعوه فلما دنا منه أغمد سيفه فتعانقا عناقا حارا جعل القوم يتعجبون له أشد العجب ثم اخلياه في مجلس وتطارحا الحديث كأنهما صديقان حميمان .

قال ابن الأشتر :

ــ والله يا مصعب لو اردت غلك لحاولت ذلك ولربما نجحت فيه ، ولكن نفسي لم تطاوعني على أن اقتل رجلا مثلك جمع الله له جمال الخلق وكمال الخلق . والله يا مصعب اني لأحبك واعجب بك واري ان الدنيا سيقبح وجه الحياة فيها اذا خلت من وجهك .

واجابه مصعب قائلا : وانا والله احبك

وأقدرك يا ابراهيم ولقد حاولت جهدى ان القاك لأقتلك فاكون قتلت اشجع فارس فى العرب ولكنى لم أسلط عليك ، والله ما يعدل رغبتى فى قتلك الا سرورى بنجاتك لعلك تنقلب خليلا لى فتقاتل معى هـذا المنافق عدو الله المختار بن ابى عبيد .

قال ابن الأشتر :

ـ ان ذلك ليسرنى يا مصعب ولقد تبينت كذب المختار ونفاقه ، فتبرات الى الله منه ، ولكن مروءتى تمنعنى أن اقاتله معك اليوم وقد قاتلتك معه امس فامهلنى يا مصعب حتى تفرغ انت منه وحينئذ فادعنى فستجدنى ورجالى طوع امرك .

ـ أين تمضى يا ابراهيم ؟ .

ـ سامضى انا ورجالى الى جهة الموصل حيث كنت عاملا للمختار هناك .

فقبل مصعب منه ذلك وركب معه يودعه بنفسه حتى اوصله الى مأمنه .

فلما اعتزم اليوم مصعب أن يسير الى الحجاز الح فى طلب ابن الأشتر فكتب اليه يستقدمه ويستحثه وعده على ابن الأشتر دعوته وقدم اليه مع رجاله بالكوفة فسر بهم مصعب واكرمهم وجعل ابن الأشتر على الوفادة واعتمد عليه فى مراقبة شئون الحكم أثناء غيبته بالحجاز .

وانكر اصحاب مصعب عليه ذلك ونصحوه الا يطمئن الى ابراهيم ابن الأشتر فقال لهم : ويحكم انكم لا تستطيعون ان تعرفوه مثلى . والله انى لأثق بابراهيم اكثر من الناس جميعا . ان عبد الملك بن مروان قد كتب اليه بالموصل يستقدمه اليه ليوليه الولايات فرفض دعوة عبد الملك وآثرنى عليه .

* * *

وغادر مصعب الكوفة فى وفد من وجوه اهل العراق حتى قدم على اخيه عبد الله بمكة . وكان أول ما فاتحه به عبد الله أن لامه فى تقريبه لابراهيم ابن الأشتر وذكره بأن اباه مالكا الأشتر هو الذى جرحه فى وقعة الجمل حيث

برئه لاسير على عبد الله فجعل يصيح صيحته المشهورة .

اقتلوني ومالكا

واقتلوا مالكا معي

فاجابه مصعب بان ذلك امر قد مضى ولا شأن لابراهيم فيما كان من أبيه .

فلما اكثر عبد الله عليه في ذلك عتب مصعب وقال : اني اخترت ابراهيم ابن الأشتر على علم مني فاما ان تقرني على عملي واما اعتزلت قول مكاني من شئت .

فعجب عبد الله من شدة مصعب في هذا الأمر واعرض عنه ولم يعاود القول فيه . وكان مصعب يأمل من اخيه أن يكرم وفادة أصحابه الذين قدم بهم من العراق فقد كانوا من خيرتهم وسيكونون لسان صدق له حين يرجعون الى بلادهم ولكن عبد الله بن الزبير خيب أمله وآمالهم فيه فاخرج مصعبا امامهم حتى قال لهم مصعب : لا يغضبكم هذا من اخي فانه رجل متزمت متشدد لا يرى في حقه أن يورث بيت مال المسلمين من احلامكم ولكني سانوب عنه في تكرمتكم وعطاياكم حين تعود الى العراق .

ولم يكتف عبد الله بحرمانهم من العطاء حتى قال لهم لما اجتمعوا عنده : حتشى يا مصعب بعيد اهل العراق لأعطيهم من مال الله .. وددت والله أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم ! .

فاجابه احدهم وكان قاضي الجماعة فقال :

يا أمير المؤمنين ان لنا ولكم مثلا قد مضى وهو ما قال الأعشى .

علقتها عرضا وعلقت رجلا

غيري وعلق اخرى ذلك الرجل

علقتك يا امير المؤمنين وعلقت أهل الشام وعلق اهل الشام عبد الملك بن مروان فماذا عسينا ان نصنع ؟ .

وضاق مصعب باخيه صدرا فاخذ به وحمل بلومه وعتبه على ما صنع بوعد العراق وقال له : انك لن توفق ابدا . احبنك بوجوه اهل العراق واحببتهم لتكرمهم فتكونوا قوة لك فاذا انت لهيتهم وتسمهم من عطائك . ما هكذا يا اخي تكون السياسة وما هكذا تحفظ الخلافة .

فقال له عبد الله :

ويلك يا أبي أحب حتى كلب اتريد ان تفتشني عن ديني لأفرق مال الله بددا في هؤلاء وما فيهم الا غني عنه وليس فيهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين . نسيت الخلافة اذن ان كنت لا احفظها الا بشراء الذمم كما يفعل آل مروان ! .

— اذن فلن تبقى لك أبدا .

— اذن فلا كانت ! .

— سلام اذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين خليفة في مكة وخليفة في الشام ؟ .

— ويلك انما اردت ان احملهم على المحجة البيضاء واقدهم من طمع آل مروان وكثرتهم وفسادهم .

ـ فانك لن تصل الى ذلك بكثرة اليد والعطاء المفرد .

ـ هلم يا مصعب لقد اردت أن احاسبك أنت فاذا انت تحاسبني ! .

ـ في أي شيء تريد أن تحاسبني ؟ الم أنص لك على المختار بن ابي عبيد ؟ الم اوطد لك حكم العراقين ؟ الم اجمع حولك الأنصار ؟ .

ـ ولكن ماذا فعلت بمال الله الذي جعله في يدك ؟ الم تمهر كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة الف درهم ؟ الم تعط لعلي بن الحسين الذي حمل اليك احنه من المدينة الى البصرة اربعين الف دينار ؟ .

ـ هذا خويصة امري فلا شأن لك به وما امهرتهما من مال الله كما زعم بل من صلب مالي . اولا تذكر حين اجتمعنا عند الحجر الأسود من قديم فتمنى كل واحد منا امنية ، وقد تمنيت انت الخلافة فاعطيتها ، وتمنيت انا ان املك العراقين وان اجمع بين سكينة وعائشة فاعطيت ما تمنيت فماذا يضيرك من ذلك ؟ .

وادرك مصعبا وقت الحج فلما وقف بعرفات لقيه رجل وسيم الهيئة فنظر اليه مليا فسأله مصعب :

ما حظيك ؟ .

ـ لا شيء غير اني نظرت اليك فقلت في نفسي هذا فتى أكره ان تراه بثينة !

ـ انت جميل بن معمر ؟ .

ـ نعم . وانت مصعب بن الزبير . وددت لو رزقني الله مثل وجهك هذا مما طلعت عليه الشمس .

فتبسم مصعب وقال : ماذا كنت تصنع به يا جميل بن معمر ؟ .

ـ افتن به قلب بثينة واشغفه حبا .

ـ فضحك مصعب حتى بدت نواجذه ثم قال : ـ

انك تحسدني على وجهي وانا احسدك على شعرك .

ـ ماذا تصنع بالشعر وعندك ما يغنيك عنه ؟ .

ـ استعطف به قلوب الهواجر ! .

ـ وهل لك من هواجر يا مصعب ؟ وقد جمع الله لك بين أجمل نساء العرب ؟ .

ـ لو تعلم يا أبن عمي ما القى من معاصياتهن ما قلت الذي قلت .

ـ انما يصنع ذلك دلالا ، لا قلى ولا ملالا ، وان يعص عنك الشعر في ذلك شيئا ، وتبيان يا مصعب بين هجر الدلال وهجر القلى والملال .

ـ او تشكو بعد من شكتك ؟ الم ترق قلبها لك بعد ؟ .

ـ لو قد رق لي قلبها ما تعبت لي وجها كوجهك ؟ .

ـ هل لك في أن القاها فاكون شفيعا لك عندها .

ـ كلا كلا . يا رجل . صل من سعك شفيعه الى امرأة .

وتولى جميل عنه مسرعا ومصعب يضحك .

وكان مصعب ذات يوم بالبيت فلما انتهى الى الحجر الأسود هاجته الذكرى فوقف هنيهة يسترجع ما كان في أول شبابه حين اجتمع عند الحجر الأسود مع جماعة فيهم اخواه عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان فقالوا ليقم كل واحد منكم وليسأل الله حاجة ، وكيف أن الله قد اعطى كل واحد منهم ما تمناه .

واتفق ان يرى اولئك النفر فذهب الى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك . فلما لقيه اعرض عنه ابن عمر وحمل بلومه على ما فعل باصحاب المختار كيف قتل في يوم واحد ثلاثة آلاف رجل فاخذ مصعب يعتذر ويقول : انهم تمنعوا اذ اعتقدوا أن صاحبهم يوحى اليه .

قال عبد الله : هلا استتبتهم اولا فمن لم يتب منهم قتلته ؟ .

ـ ما كانوا ليتوبوا ابدا .

ـ الم يعرضوا عليك ان يقاتلوا معك؟ . اهلا بدل ذلك على انهم ترجى توبتهم ؟

ـ لقد اردت ان افعل لولا ان اصحابي من وجوه اهل العراق عارضوا في ذلك وقالوا اخترنا او اخترهم .

ـ ما أحالهم الا نظروا في ذلك لصالح عبد الملك بن مروان خشية ان تقاتله هؤلاء .

وفكر مصعب لهذه الكلمة التي ارسلها عبد الله بن عمر ارسالا دون تدبر ولا روية ، ولكنها اثارت في قلب مصعب شجنا كاما ، فقد كان يحس في اعماق نفسه ان لاشفاقه من قتال عبد الملك ، ورغبته الملحة في توفير جهد ما يستطيع اثرا في موقفه من أصحاب المختار ، اذ الحوا عليه الحاحا شديدا في ان يبقي عليهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان ، فكأنه أراد التخلص منهم حتى لا يحملوه حملا على ما لا يريد .

ولكنه لم يشأ ان يعترف بهذه الحقيقة التي يكتمها عن الناس جميعا ولم يكاشف بها غير صديقه الاحنف بن قيس . ترى ماذا يكون موقف اخيه منه لو علم ؟ .

وكان قد سمع من الأحنف بن قيس مثل هذا الاتهام الذي سمعه من عبد الله ابن عمر اذ قال له الأحنف يوم مذبحة أصحاب المختار : الا يجوز يا مصعب ان لعبد الملك بن مروان يدا في تحريض اصحابك هؤلاء على المطالبة بقتل اصحاب المختار لما علم من تحمسهم لقتاله ؟ .

ولكن لم يكن لمقالة الاحنف اذ ذاك في نفسه مثل الأثر الذي تركته مقالة عبد الله بن عمر اليوم فقد حتى أن يشيع هذا الظن في الناس فيبلغ اخاه عبد الله بن الزبير .

وصاح مصعب مجيبا عبد الله بن عمر :

ماذا تقول يا ابن عمر ؟ انشك في نية أصحابي واخلاصهم ؟ او تتهمهم بالعمل لصالح عبد الملك بن مروان ؟ .

ـ انا لا اتهم احدا ، ولكن ان كان لاحد صالح فى قتل هؤلاء فهو عبد الملك ابن مروان .

ـ انما ألح اصحابى فى قتل هؤلاء لأن هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيراً من اولادهم وعشائرهم .

ـ انى لا اتهم بل الوهم ذلك انت . ويحك خبرنى يا مصعب لو ان رجلا الى ماشية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف رأس فى غداة واحدة ألست تعده مسرفا ؟ .

ـ بلى .

ـ افيراه اسرافا فى البهائم ولا يراه اسرافا فيمن يرجو توبتهم ؟ .

فتأثر مصعب مما سمع ووقف مكانه لا يحير جوابا .

فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :

ـ يا ابن أخى اصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

فكان لهذه الكلمة الأخيرة اثر عميق فى نفس مصعب لا تمحوه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حياته وكلما فكر فى معناها اقشعر بدنه وتقطع قلبه ندما وخشية .

* * *

لم يخف مصعب على اخيه عبد الله استيلاءه منه لما اساء استقبال وفد العراق ، ولما افلت له الحديث فى امر سكينة وعثيمة ، فلم يشأ ان يكثر التردد عليه اثناء اقامته بمكة فكان لا يزوره الا نادرا .

ولما عزم على الرجوع الى العراق خطر له أن يرحل من مكة دون أن يسلم على أخيه او يودعه حتى يكون ذلك بمثابة الاحتجاج عليه . ولكنه عاد فرأى أن في ذلك اعتداءا على حق أخيه الخليفة . وحتى أن يتحد أحد بطانته من ذلك شيئا لا يضار صدره عليه وتصويره بصورة من يريد الخروج عن طاعته .

وحين حضر لتوديعه جلس معه طويلا فذاكره عبد الله في أمر عبد الملك ابن مروان ووجوب مقاتلته بالحرب ، فوعده مصعب خيرا وقال له اني راجع الى العراق لأدبر فيها الأمور وأهيىء فيها الأسباب حتى اذا أطمأننت الى استقامة الأحوال بها مضيت بجيشي اليه وكنت اليك لتحرريني بجيش من عندك يلقاني في الطريق .

قال عبد الله : أخشى يا مصعب أن تسيء الدعة في العراق ما تعدني به اليوم فأجابه مصعب في شيء من الحدة :

يا أخي لم لا تحسن رأيك في ؟ ان الدعة لا تشغلني عن مهام الأمور .

ـ هذا قول تقوله يا مصعب وأخشى أن يكذبه ما يبلغني من عملك .

وكان مصعب يخشى أن يكون قد بلغ عبد الله شيء عن ضعف لينه في قتال عبد الملك لما بينهما من الصداقة القديمة ، ولكنه لما ذكر الدعة أدرك بقينا ان أخاه لا يدري عن هذه الحقيقة شيئا فاطمأنت نفسه وانشرح صدره ، وان أظهر الحدة في رده عليه حينما اتهمه بحب الدعة .

ولم يكد مصعب يصل الى الكوفة ويستقر بها أياما حتى انتهى اليه أن أخاه قد نزله من ولاية البصرة ، وولى مكانه عليها ابنه حمزة ، فغضب مصعب غضبا شديدا ، ولم يقلل من غضبه ان عبد الله كتب اليه في الاعتذار عن ذلك بأنه أراد أن يعرفه هو للاستعداد لقتال عبد الملك حتى لا يشغله عنه شيء ، وأن من الخير أن يكون على البصرة رجل من آل الزبير أثناء سير مصعب الى الشام لمنازلة عدوه .

واجتمع بالأحنف بن قيس وابراهيم ابن الأشتر وغيرهما من كبار أصحابه فذاكر معهم سوء سياسة أخيه وخطله واستبداده بالرأي ، واستشارهم فيما ينبغي عليه أن يعمل .

فأشار عليه اكثرهم بألا يخضع لأمر أخيه ولا يعترف لحمزة بولاية البصرة وان يكتب الى ابنه بها أن يستمر في حكمها بالنيابة عنه ولا يمكن حمزة من شيء حتى يضيق صدره فيلحق بأبيه راجعا الى مكة .

ولكن الأحنف بن قيس خالفهم في هذا الرأي بشدة وقال لمصعب :

انك ان فعلت ذلك أعلنت للناس انك على خلاف مع أخيك أمير المؤمنين ولن يستقيم لك ولا له أمر بعد ذلك .

ـ فماذا أصنع يا أبا بحر ؟ .

ـ فاطرق الأحنف مليا ثم قال له

ـ ماذا ترى في ابن اخيك حمزة هذا ؟ .

ـ شاب احرق احمق لا يحسن أن يسوس بيته .

ـ فاتركه اذن يحكم البصرة برهة حتى يظهر فساد سياسته وعجزه عن القيام باعباء الولاية فتضطره احوج حينئذ الى عزله ويعيد الولاية اليك .

ـ واذا لم يفعل ؟

ـ كلا يا مصعب لا تخض في سوء الظن باخيك عبد الله الى ابعد مما ينبغي لك ، فمهما يسع لنا ان نقول فيه فلا ينبغي لنا نسي انه شديد في الحق على نفسه وعلى أقرب الناس اليه .

فقال مصعب : صدقت يا أبا بحر ان عبد الله كما وصفت وهذا ما حيرني في امره كيف يحاسبني على النقير والقطمير ثم يولي ابنه هذا الاحمق على البصرة ؟

ولما انصرف اصحابه من عنده ولم يبق الا الأحنف قال له :

ـ ويحك يا مصعب ما كان ينبغي ان تعلي هذا على ملا من الناس فانك لا تأمن ان يكون فيهم من يكتب الى اخيك عبد الله بما يسمع منك .

فقال مصعب : ليبلغه ذلك فاني لا ابالي .

ـ كلا يا مصعب ما يكون لك ان تضعف الأمور على نفسك وان الكياسة ملاك السياسة .

قال له مصعب : اعلى أن انتظر حتى يثبت عجز حمزة وفساد سياسته لغير شيء الا ان أوافق اخي عبد الله على استبداده ؟

قال الأحنف : ويحك أي شيء يمحلك؟ انك لست حريصا على قتال عبد الملك ابن مروان . وهذا ضعف فيك فماذا يضيرك ان تجعل في عزلك عن البصرة وتوليتها لحمزة ما تعتذر به الى أخيك من التعجيل بالمسير الى الشام خشية ان تضطرب أمور العراق في غيبتك ؟ .

فاستراح مصعب لهذه الكلمات اذ اصابت هوى في نفسه فقد كان لا يكره شيئا في الحياة ما يكره أن يضطر الى محاربة ذلك الصديق الحميم .

* * *

طرأ على مصعب تغير شديد في مزاجه وسلوكه ونظرته الى الحياة منذ عودته من الحجاز . فلم يعد ذلك المرح البسام الذي يأخذ الحياة أخذا لينا ، ويستقبلها بصدر منشرح ، ويستمتع بها استمتاع من لا يفكر الا في يومه ولا يبالي غده .

واخذت الهموم تثور في نفسه فتكدر عليه يومه وتؤرق ليله أحيانا وتضطره للتفكير في المستقبل فيجده كالحا لا يبشر وجهه بخير ولا يفتر ثغره عن أمل . أين تلك الثقة التي كانت تفيض بها نفسه ؟ وأين تلك الآمال التي كان يجيش بها صدره ؟ لقد قضى على كل ذلك ما لقيه

به أخوه عبد الله حين قدم عليه في عاصمة ملكه .

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد ، ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد ذلك النصر الكبير الذي أحرزه على عدوه اللدود المختار بن أبي عبيد أن تبلغ بأخيه كرارة اليد بحيث تمنع عطاءه عن تلك النخبة المختارة من وفد العراق الذين قدم بهم عليه مرهوا بهم مؤملا أن يلقوا من أخيه أمير المؤمنين ما يكافىء بعض ما قدموا من نصرة له ، وبعض ما أظهروا من اخلاص في سبيله ، حتى يبيض وجهه هو أمامهم فيستطيع في المستقبل أن يثق باستمرار ولائهم له وعدم انصراف قلوبهم عنه الى أعدائه .

لقد رجع من الحجاز وهو يشعر بالحزن والهوان مما فعله أخوه عبد الله بوجوه أهل العراق اذ لم يكتف بمنع العطاء عنهم بل أهانهم جهارا ونددّ بهم على تلك الصورة المسيئة حيث وازن بينهم وبين أهل الشام فود لو أن له بكل عشرة منهم رجلا واحدا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

أجل انه قد أجزل لهم العطاء عقب عودته من العراق ليحوضهم عما فاتهم من عطاء أخيه ، وبالغ في التحبب اليهم والتقرب الى قلوبهم ، ولعله قد نجح في استبقاء مودتهم له . ولكن كيف يزيل عنهم أثر الاهانة التي مسيتهم من أخيه وكيف يستعيد له بعدها ولاءهم واخلاصهم ؟ وان فرقا كبيرا بين ان يخلصوا له هو وبين ان يخلصوا للقضية العامة التي يعمل لها ويجاهد في سبيلها أخوه أمير المؤمنين .

انهم لن يوازنوا بينه وبين عبد الملك ابن مروان فما هو الا أمير تابع لأخيه عبد الله ، ولكنهم سيوازنون حتما بين عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وبين عبد الملك بن مروان الخليفة بالشام فمن ذا يستطيع أن يلومهم اذا مالت نفوسهم الى عبد الملك ؟ .

وها هو ذا أخوه عبد الله يعزله عن ولاية البصرة كأنما يريد أن يؤكد لهؤلاء العراقيين أن ليس لأخيه مصعب شيء من الأمر ، وكأنما يقول لهم بلسان حاله وبلكم لا تصروا بصاحبكم مصعب فاني أنا الحاكم من ورائه ومرجع الأمر كله الي .

انه هو الكريم بالطبع والنجدة لأشد الناس صقا بما جبل عليه أخوه عبد الله من البخل ، واعمقهم احساسا بالألم والمرارة من حرائه وبالحياء منه والخجل كذلك .

وانه ليعتذر عنه لبعض من يجلسون اليه من غير خاصة أصحابه ، فيزعم لهم أن مرجع ذلك من أخيه عبد الله الى فرط تقواه وشدة محاسبته لنفسه وحرصه على ما استخلفه الله عليه من مال المسلمين ان يصرف في غير ما أمر الله به ان يصرف من وجوه الخير والبر ،

ولكنه لا يؤمن بذلك فى قرارة نفسه ولا يعزوه الا الى رديلة البخل وهى اسوأ الخلال جميعا اليه .

وتتسلسل الهموم احداها بعضها برقاب بعض فيذكر اولئك الثلاثة الآلاف من أصحاب المختار الذين تركهم يذبحون فى يوم واحد بعد ما توسلوا اليه ان يبقى عليهم ليقاتلوا معه آل مروان أعدائهم وأعداءه وكان فى وسعه أن يحول دون ذلك لو وقف موقف الحزم من اشياعه الكوفيين .

ويتذكر تلك الكلمة التى حدثه بها الرجل الصالح عبد الله بن عمر حين لقيه بمكة فلم يزل دويها فى سمعه وقلبه « يا ابن أخى أصبت من الماء البارد ما استطعت فى دنياك » .

ويتذكر امرأة المختار ابنة النعمان ابن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قتلها اصحابه غدرا وهى فى طريقها بين الكوفة والحيرة فعيره بذلك الشاعر عمر بن ابى ربيعة فى ابياته التى جرت على افواه الناس فى كل مكان .

لقد احتمل قبلا كل ما احتمل من ذلك من أجل اخيه عبد الله امير المؤمنين وفى سبيل العصبية العادلة التى تنافح عنها لخير المسلمين ، والتى كان يطمع أن تنتصر فى المستقبل القريب .

اما اليوم وقد اوشك أن يياس من مستقبلها فعلام احتمل كل ما احتمل ؟ وعلام اساح فى سبيلها ما لم يقره ضميره ولم تسوغه له مروءته ؟ .

ثم ان من اشد ما يؤلم نفسه ان العدو المطالب هو بقتاله لم يكن غير صديقه القديم الحميم عبد الملك بن مروان .

لقد استطاع رمما ان يتقى الاشتباك معه فى حرب بما كان يشغله هو من قتال المختار بن ابى عبيد ، وبما كان يشغل عبد الملك من قتال الروم والخوارج ،

فاى عذر بقى له اليوم بعد ما قضى على المختار بن ابى عبيد وفرغ منه ؟ وان اخاه عبد الله ليحثه على المسير الى الشام لمنازلة عبد الملك ، وانه ليزعم له أنه ما عزله عن امارة البصرة وجعلها لابنه حمزة الا ليتفرغ مصعب لهذه المهمة الكبرى .

وانه ليعلم ان هذا عذر اقبح من

الدسولكن لماذا لا يتجه سيبا لتسويف المسير الى الشام كما نبهه الى ذلك الاحنف بن قيس ؟ فى وسعه الآن ان يكتب الى اخيه عبد الله بانه لا يستطيع ان يغادر العراق ويتوجه صوب الشام لمنازلة عبد الملك الا بعد ان يثبت حمزة انه قادر على ضبط الاحوال وتصريف الامور فى ولايته وبوسئذ يطمئن هو فيسير .

والى ان يتم ذلك قد تجد امور وامور ليس من المستطاع التكهن بها اليوم .

* * *

ولم يطل بمصعب الانتظار بان حمزة اخى اخيه عبد الله لم يلبث ان ظهر مجرده من حكم البصرة وسوء سياسته فى اهلها فضاقوا به وتذمروا من وجوده بينهم ، واخذوا يستخفون بامره ، ويستهينون بشأنه ، ويتمردون عليه فيمضى هو منهم ويشط فى معاملتهم فلا يزيدهم ذلك الا نفورا منه واغراء به .

ولم يسع الاحنف بن قيس عندئذ الا ان يكتب الى عبد الله بن الزبير يطالبه بعزل حمزة عن ولاية البصرة واعادتها الى مصعب كما كانت وتقول له : ان عبد الملك قد فرغ من مناقشة عمرو ابن سعيد الأشدق اذ قتله غدرا وانه طليق الآن ان يستمد لغزو العراق .

واستجاب عبد الله بن الزبير لكتاب الاحنف فعزل ابنه حمزة ، واعاد ولاية البصرة الى مصعب ، وأوعاز اليه بالتوجه لمناجزة عبد الملك فكان ذلك يوما مشهودا اذ رجع مصعب الى البصرة ليصلح بها ما افسده ابن اخيه وليرتب فيها الأمور استعدادا لما ليس منه بد من التوجه الى الشام لتنفيذ ما أمره به اخوه عبد الله .

واخذ معه نساءه الاربع عاتكة وسكينة دورهن بالبصرة ، وكأنما احس انه يقيم بها هذه المرة مقام مودع ، وانه لن يلبث ان يغادرها لغير رجعة ، فاطلق لنفسه العنان فى الاستمتاع بأقصى ما يمكنه من مباهج الحياة فى هذه المدينة الوادعة ذات الربوع وذات النخيل وذات النمط الذى تتمايل فيه السفن والقوارب غادية رائحة .

آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام .

اللهم الا تلك الخصومات اللذيذة العذبة التى تنشب بينه وبين نسائه الحميلات اللائى يتنافسن عليه أيهن تكون لها الحظوة الأولى عنده والمقام الأول فى قلبه .

وقد اتيح لهن فى هذه المدينة من مراتع ومتعة ما لم يتح لهن فى الكوفة ، فامعن فى التحبب اليه والتدلل عليه فى أساليب مختلفة لكل واحدة منهن أسلوبها الذى تجيده .

ولقد كان يشقى بهن وبما يصدر عنهن من مناقسات ومكايدات تدور حوله كأنما هو كرة تتلاعب بها الصوالج ولكنه كان يجد لذلك لذة لا تعدلها لذة فى الحياة .

كان يلذ له الهجر كما يلذ له الوصل

وبعجه العتب الجميل كما تعجبه الشكوى الرقيقة ، وتطيب له المعاتبة كما تطيب له المراضاة وانها لأمور محببة اليه اذ يجد فيها مجالا لقلبه أن يتوثب ويتعذب ويشتكي ويستعتب ، ويتقلب بين حلاوة الوصل ومرارة الهجران .

ولقد أجتمع له من اجمل نساء العرب في عصره ما كانت تكفي واحدة منهن ليقصر عليها بعلها قلبه ، ولكن قلب مصعب الكبير يتسع لهن جميعا وتبقى فيه بعد روايا خالية تود لو أن الشرع اباح له ان يشغلها بسوة أخر .

وكان أشد ما يلقى من ذلك ما يلقى من عائشة بنت طلحة فقد كانت أشرسهن عليه واكثرهن ثورا ودلا وتدليا .

انه لا يعرف متى يأتي رضاها ولا من أين يأتي سخطها ، فقد يعمل شيئا يريد به رضاها فاذا هي تغضب منه ، وقد يأتي امرا يحاول به ان يغضبها فاذا هي ترضى عنه وتشكره عليه .

ولن ينسى ابدا كيف عرضت عليه ذات يوم لمالي لؤلؤات لم ير الناس أكبر منهن حجما قط ولا اجمل بريقا فاشتراها بعشرين الف دينار فانطلق بها فرحا الى دار عائشة ليقدمها هدية اليها ، وكان يعرف غرامها باللؤلؤ الأصيل وحرصها على الاستكثار منه وتدقيقها في اختياره ، فلما دخل عليها عند الضحى وجدها نائمة فلم يستطع من فرط سروره بما يحمل لها أن ينتظر حتى تستيقظ من نومها فأيقظها ونثر اللؤلؤ في حجرها وهو يقول :

ـ جئتك يا عائش بلؤلؤ لا يصلح لغير جيدك وليس عندك مثله .

فما راعه الا أن نظرت الى اللؤلؤ بغير اهتمام ثم قالت وهي تتثاءب :

ـ ويلك يا مصعب أمن أجل هذا توقظني من نومتي ؟ والله ان نومتي كانت أحب الي من هذا اللؤلؤ !

وعادت الى نومها وهي تومىء له ان اخرج ودعني أنم وحدي في سلام .

وكان ربما يدعوها للنزه معه في بعض ضواحي المدينة فتقول له :

ويحك ألا تغار على من عيون الناس ؟

فيقول لها : أي شيء يدعوني لغيرة منهم عليك ؟ أنا أكبر من ذلك يا عائشة وانت اكرم من ذلك ! .

فتثور في وجهه قائلة : انك لا تحبني فاذهب عني ولا تعد الي .

فيحاول أن يسترضيها فلا تقبل له كلاما وتصعق الباب في وجهه وتبقى اياما معاضبة له لا تأذن له ولا تكلمه .

وكانت من جانب آخر قلما تحتجب اذ كانت تجلس وتأذن كما يأذن الرجل فاذا عاتبها مصعب في ذلك قالت له :

أن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما في وصمة يقدر ان يذكرني بها أحد .

فاذا راجعها مصعب في ذلك اندفعت تقول له :

ـ ويلك ان الصبرة من الضعف وهي لا تجدر بمثلك .

ـ انما اغار عليك حبا يا عائشة ولا اغار عليك ضعفا .

ـ فادع عنا احد اصحابك ليجلس اليك ويرانى بين يديك .

ـ او بعد غد .

ـ كلا بل غدا والا فلا .

ـ حبا وكرامة .

قال ذلك وهو يعلم ان غد ذلك اليوم سيكون فى نوبة سكينة بنت الحسين ولكنه لم يشأ أن يتقهقر امام تحديها السافر فوعدها ولا بد له ان يفى بالوعد وليكن ما يكون .

ولم يدرك انها قصدت ذلك من عمد لتعقد ما بينه وبين قريبتها سكينة الا بعد ذلك بايام حين صارحته هى بذلك وهى تضحك من فعلته وسذاجته .

فلما كان الغد حضر مصعب الى دارها ومعه ابو عامر الشعبى، فلما طلع فى الدار التفت اليه وقال له ادخل فدخل معه ومضى نحو حجرته فتبعه الشعبى فاذا هو بحجلة جميلة مكسوة بالوان الحرير فوقف ينظر اليها مبهوتا متعجبا من حسنها وبهائها ، ودخل مصعب الحجلة واختفى فيها فهم الشعبى ان ينصرف ولكنه تذكر ان مصعبا لم يأمره بالانصراف ، وحدثته نفسه بالجلوس ولكنه خشى ان يغضبه ذلك منه فوقف منتظرا فاذا جارية قد خرجت فقالت :

ـ يا شعبى ان الامير يأمرك ان تجلس

فجلس الشعبى على وسادة وثيرة عامر فيها حتى اشفق ان يتلفها او يفسدها وظل كذلك برهة لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يريد مصعب ان يفعل به .

وانه لكذلك اذ رفع سجف الحجلة فاذا هو بمصعب بن الزبير يحييه ويبتسم له فاطمأن قلبه قليلا ثم رفع السجف الآخر من الحجلة فاذا هو بعائشة بنت طلحة قد بدت فى زينتها كانها الطاووس فأخذت تبتسم له وتحييه فلا يحير جوابا ..

ـ ويحك يا شعبى الا ترد تحية باحسن منها ؟

وتلعثم الشعبى وتلجلج وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدتى ..

ـ ماذا دهاك ؟ لطالما سمعت عنك انك فصيح المنطق فأين ذهبت فصاحتك ؟

وقهقه مصعب ضاحكا وهو يقول :

ـ دعيه فوالله لو رايتك أول مرة مثله لاصابنى الذى اصابه .

ثم وجه حديثه الى الشعبى فقال :

ـ هل تعرف هذه يا شعبى ؟

ـ نعم اصلح الله الامير .

ـ ومن هى ؟

ـ سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

ـ كلا يا شعبى .

ـ فمن تكون اذن أيها الأمير ؟

ـ هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما رأيت من ليلى لدن طرشا ربى
الى اليوم أخفى حيهـــا واد أجن

فحار الشعبي ولم يدر ماذا يقول .

ورنت ضحكة عائشة وهي تقول :

ـ لا تصدق هذا الرجل يا شعبي . فاني أنا حقا عائشة بنت طلحة .

وسكت الشعبي ولم يدر لماذا يحب

ـ انظر الى يا شـــعبي . الا يسرك ان تنظر الى ؟

ـ بلى يا سيدة نساء المسلمين

ـ هانتذا قد بدأ لسانك ينطلق . . تكلم يا شعبي وحدثنا حديثك .

ـ لو أعفيتني يا سيدتي فاني والله لا ادري كيف أحدثكما .

ـ فكررت عائشـــه ضاحكة ثم قالت :

ـ أتحب ان تبقى هنا ام تنصرف ؟

ـ بل انصرف اذا اذنت

ـ استأذن من دعائك .

ـ هل يأذن لي الأمير اصلحه الله ؟

ـ اذهب يا شعبي مصاحبا ووالى العشي بالمسجد .

ولما كان العشي وافاه الشعبي بالمسجد فسلم عليـــه فلما رآه مصعب قال له أدن مني فدنا منه حتى وضع يده على مرافقه فمال اليه فقال :

ـ خبرني يا شعبي هـــل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟ .

ـ لا والله ما رأت عيني مثله قط .

ـ ولن ترى مثله ابدا . . أفدري لم ادخلتك ؟

ـ لا أيها الأمير

ـ لتحدث الناس بما رأيت

ثم التفت مصعب الى كاتبه فقال له :

اعـط الشعبي عشرة آلاف درهم وثلاثين توبا .

فكان الشعبي يحدث اصحابه بما رأى ويقول لهم : ما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم وبمثل كارة القصار ثيابا ونظرة من عائشة بنت طلحة .

اما سكينة بنت الحسين فقد كانت تحبه حبا صادقا ولكنها لا تظهر له من حبها الا القليل . وكان هو يحبها حبـــا

جما الا ان تعلقها بالسياسة ، والحاحها عليه بمعاجلة عبد الملك بن مروان كلما لقيه دون انقطاع ، وغرامها بالتنديد بسياسة اخيه عبد الله وتدخلها فيه قد اقام بينه وبينها شيئا كالستار الرقيق يحول دون استمتاعه بحبها على الوجه الذي يرضيه .

ولما عاد من الحجاز ساخطا على اخيه أخذت تلومه وتعنفه ولا سيما بعد ما تركه اخوه عن ولاية البصرة فكانت تقول له :

ـ لو عملت بمشورتي ورأيي ما انتهت الى هذا الحال .

تشير بذلك الى ما كان من تحريضها اياه من قبل على الاستقلال بالعراق عن اخيه . فقد كانت ترى دائما ان مصعبا أحق من عبد الله بن الزبير بولاية هذا الأمر لا لأنه افضل منه او اتقى منه بل لأنه اجدر ان يجمع قلوب الناس حوله بما يمتاز به من الخلال التي تحببهم فيه مما ليس عند عبد الله الا نقائضها التي تنفر الناس من حوله .

وكانت تشفق ان ترجع كفة عبد الملك ابن مروان اذا بقي مصعب يعمل باسم اخيه ، فشتان بين من يشتري قلوب الأنصار والأتباع بالمال والجاه وبين من يبيعها بالشدة والصرامة ومنع العطاء .

كانت ترى مصعبا كفاء عبد الملك ، ان يفضله عبد الملك بدهائه ومكره فان مصعبا يفضله بفروسيته وشجاعته وكرمه وبجماله الذي يفتن الأبصار .

ولكن ماذا يجدي كل ذلك على مصعب ان كان يعمل من اجل اخيه الذي يهدم كل ما يبنيه ؟ .

انها لا تجهل مكانة عبد الله بن الزبير ، ولا تنكر تقواه وزهـــده وصرامته في الحق ، وحرصه على اتباع النهج الذي سار فيه امثال عمر بن الخطاب وعلي ابن ابي طالب من قبله على ما فيه من شوائب تقعد به عن اللحاق بهم .

ولكنها ترى ان الزمان قد تغير عما كان . وان الطراز الذي كان يصلح في ايام عمر بن الخطاب لم يعد يصلح حتى لايام جـــدها علي بن ابي طالب بعد ما اظلمت نيران الفتنـــة في ايام عثمان ابن عفان فذهب هو وقودها ، وتوالت الفتن كقطع الليل المظلم فقلبت موازين الاشياء ، فنجح من كان حريا ان يخفق واخفق من كان حريا ان ينجح . ومن ذا ينسى ما كان بين الامام علي ومعاوية ثم ما كان بين ابيهـــا الحسين ويزيد ابن معاوية .

لقـــد اخفق علي وهو افضل الناس واتقاهم ، ونجح معاوية وظفر بالخلافة وهو لا يساوي قلامة ظفر علي . ولقي ابوها الحسين مصرعه حين ثار على يزيد بن معاوية وشتان بين الحسين ويزيد بن يزيد .

فماذا يكون مصعب عبد الله بن الزبير اذا عنى بهؤلاء وكيف يتاح له النجاح من حيث اخفق من هم افضل واثبت في هذا النهج الذي ساروا عليه ، ومن له نهاية على في صدور الناس او بالحب الذي كانوا يضمرونه للحسين ؟

اما مصعب فانه من الطـــراز الذي يصلح لولاية الناس في هذا الزمان ففيه جميع الصـــفات التي تحببهم فيـــه وتجمعهم عليه ، وتعينه على بلوغ الغاية ولا يعوزه الا شيء واحد هو الاستقلال بامره عن اخيه .

ولقد ازداد املها في ان يقتنع برايها هذا حـــينما عزل عن البصرة واسندت ولايتها لعمرة بن عبد الله بن الزبير ، اذ كان مصعب في حالة سخط شديد على اخيه ولـــكن ذلك لم يدم طويلا اذ ما لبث ان اعيـــد الى ولاية البصرة فقضى ذلك على املها في اقناعه بالاصغاء لما تريد .

على انها لم تيأس كل اليـــأس من تحقيق الحلم الذي يراودها على وجـــه من الوجـــوه ـ ذلك الحلم الذي بدأ يطوف براســـها منذ تزوجت مصعب ابن الزبير فوجـــدت فيه من خلال الشجاعة والكرم والمروءة ما أغراها ان تطمع في امر لو تحقق كان فيـــه شفاء نفسها وتقوس شيعتها جميعا من النار لجدها ولابيها وغيرهما من اهل بيتها السوي الكريم من ذلك البيت الـــذي ناصبهم العـــداء وانتزع منهم الخلافة واذاقهم صـــوف العذاب والذل ـ بيت آل مروان .